« كشاجم »

— ٢ —

للاستاذ عبد الجواد الطيب

مُقدمة :

إذ شئنا أن نتحدث عن ثقافة الرجل والتمسناها فى المصادر التى تحدثت عنها ، لانجد إلا كلاما فيه كثير من التكرار والتهويل على طريقة القدامى فى النقد والتقريظ ، مثل الذى قال المسعودى فى مروج الذهب : وكان (أى كشاجم) من أهل العلم والرواية والمعرفة والأدب (١) فهذه أوصاف أربعة عامة منها اثنان متقاربان هما العلم والمعرفة ، وأما الأدب فلا مشاحة فيه ، والرواية إذا قصد بها الرواية للادب فقد لايكون فيها مشاحة كذلك . وأما إذا قصد بها رواية الحديث ، فانا نستطيع القول بأن كشاجم لم يكن محدثا ، أو حتى عالما مبرزا فى أى علم من علوم الدين ، اللهم إلا أن يكون ذلك هو القدر الذى يلزم تحصيله ولا يسلك به الشخص فى عداد العلماء . حقا إننا نجد فى شعر كشاجم إشارة إلى أنه سمع شيئا من الحديث ، وذلك يبدو فى مدحه لبعض العلماء :

إن سألناك عن حدود كتاب الله أوضحت مشكلات الحدود
أو سمعنا منك الحديث فاسنا دك لاباللواهى ولا المردود

وهذا البيت الأخير إن أفاد شيئا فانما يفيد أن الرجل قد سمع شيئا من الحديث ، ولكن لاينهض دليلا على أن كشاجم كان من رواة الحديث بالمعنى الصحيح .

ثم اليك هذه الألفاظ البراقة وتلك السجعات المتكافة التى نجدمثلها كثيرا فى تراجم الأدباء والعلماء: « كان رئيسا فى الكتابة ، ومقدما فى الفصاحة والخطابة ، له تحقيق يتميز به على نظرائه ، وتدقيق يربى به على اكفائه ، وتحديق فى علوم التنجيم أضرم فى شعلة ذكائه فهو الشاعر المفلق ، والنجم المتألق (١)

فأما عن الكتابة فنعم ، وأما الرياسة فيها فلاشك أنها محل نظر ، وأما الخطابة فما أظن أحدا قال بأن كشاجم كان خطيبا ولم نصلنا خطبة واحدة ولو قصيرة تثبت ذلك ، ثم إن ديوانه لايكاد يشير إلى هذا ولو فى بيت واحد مجرد إشارة اللهم إلا هذا البيت الذى يقوله ناصحا — فيما يبدو لبعض المتصلين به :

فرد الكتابة والخطابة والبلاغة والعبارة

وهذا لايقتضى أن يكون هو نفسه خطيبا وإن كان يستأنس به فى ذلك لوقد وجدنا فى شعره مايؤيده ، فنحن كثيرا مانجده يفتخر بشعره وكتابته وعلمه ولكنه لم يفخر مرة واحدة بخطابته

وقد نفهم البيت على أن به فخرا ضمنيا ، أو حتى فخرا صريحا بكتابته هو ، وخطابته وبلاغته ، ولكن على كل حال هذه هى الاشارة الوحيدة فى ديوانه كله وما قرأت له من شعر خارج الديوان

وبعد هذا لاأدرى ماهو التحقيق الذى يتميز به على نظرائه والتدقيق الذى يربى به على اكفائه . . . إلى آخر ماذكروا من هذه الأوصاف الفضفاضة ؟ !

وليس ببعيد عن هذا كثيرا مايحيكونه حول لقبه من قولهم كان من الشعراء المجيدين ، والفضلاء المبرزين . حتى قيل إن لقبه هذا منحوت من عدة علوم كان يتقنها فالكاف للكتابة ، والشين من الشعر ، والألف من الإنشاء ، والجيم من الجدل ، والميم من المنطق » (١) وقولهم فى هذا المعنى تقريبا مع خلاف يسير : « لقب نفسه بكشاجم فسئل عن ذلك فقال : الكاف من كاتب والشين عن شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم » وقد زاد على ذلك ابن العماد الحنبلى فى شذراته : « قال فى تثقيف اللسان : كشاجم لقب له جمعت أحرفه من صناعته ، ثم طلب علم الطب حتى برع فيه وصار أكبر علمه (كذا ! !) فزيد فى اسمه طاء من طبيب وقد مت فقيل طكشاجم ولكنه لم يشتهر » .

وكل من كتب من المحدثين — عرضا فى كشاجم تابعوا القدامى فى ذلك دون أن يلفت نظرهم هذا الكلام؛ فينظروا فيه نظرة دقيقة فاحصة ، ولكن لعل عذرهم فى ذلك أنهم لم يفردوا بحثا خاصا لكشاجم ؛ وإنما جاء الحديث عنه فى غمار حديث عام بما لايحتمل

١ مروج الذهب ٤٧٢ . ٣ النسخة المخطوطة من الديوان ورقة ٤٢، ٤٣
١ ابن العماد الحنبلى

(٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٣ ٣٧ أثناء الكلام عن ٣٦٠هـ

الوقوف كثيرا عند كشاجم وحده .

وقد ذكر صاحب أعيان الشيعة من المحدثين إن كشاجم مأخوذ من أربع كلمات : كاتب شاعر ،منجم متكلم ، مجيد للاوصاف كلها لاعديل له فى عصره » (١) فهو يذكر أن كشاجم كاتب شاعر مع أنه هو نفسه لم يذكره فيمن ذكر من الكتاب وإن كان قد عده فى الشعراء ، فهو فى هذا أشبه بمن يناقض نفسه إلا أن يكون قد رأى أن كشاجم الكاتب ليس هنالك فأسقطه من عداد الكتاب ؛ وهذا شىء آخر ! !

بقى أن نقول إن هذه الأوصاف الأربعة : كاتب شاعر منجم متكلم لو سلمنا بها جدلا ، فقد كان يجب الوقوف عندها مادامت قد حددت بأربعة ومع هذا فقد يكون فيها مافيها، إذ لم يحدثنا أحد عن كشاجم كما لم يحدثنا هو عن نفسه أنه كان « متكلما » ومع ذلك فقد كان يجب الوقوف عند هذا الحد

ولكن الرجل يأبى إلا أن يكون كشاجم بعد هذا « مجيد للاوصاف كلها ؛ لاعديل له فى عصره » ! !

***

فلننظر إذن فى ثقافة الرجل فى شكل تعقيب على تحليلهم لهذا اللقب الذى قد حللوه على طريقهم مثل قولهم : الكاف من كاتب والشين من شاعر . . . إلى غير ذلك مما سبق الحديث عنه ، والافاضة فيه

فاما عن الكتابة فقد نظرت فى بعض كتب الإنشاء مثل صبح الأعشى فلم أجد لكشاجم الكاتب فيه ذكر بينما نراه يعرض رسائل بعض كتاب الدواوين القريبين من عصر كشاجم مثل ابن عبد كان، وابن الداية، كما نراه فى الاخوانيات ينقل الينا رسائل لابى الفرج البيغاء ـ المعاصر لكشاجم فى التهنئة بولاية عمل والتهنئة بالعودة من الحج ، وبالقدوم من السفر وبالصوم وبالعيد كما يثبت له رسائل فى التعازى والاستهداء والشكر . . . ولكن لم ترد إشارة ما إلى كشاجم الكاتب فى أى جزء من أجزاء الكتاب ؛ ومع هذا فصبح الأعشى لايهدف إلى إحصاء الكتاب فى كل عصر حتى يكون من المصادر الأساسية فى اثبات الكتابة لكشاجم أو نفيها عنه ، فاذا كان هذا الكتاب أو غيره لم يشر إلى كشاجم كاتبا ، فان جميع من ترجموا له صرحوا بأن الكتابة كانت شيئا بارزا عنده ، وربما لانقل فى ذلك عن الشعر ، وقد يستدل على هذا بأن ترجمته على ظهر ديوانه تبدأ بهذه العبارة التى تلفت النظر ، والتى لها دلالتها الخاصة . هو محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك الكاتب» ومثل ذلك ماقاله المسعودى: فأخبرنى أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندى ابن شاهك الكاتب المعروف بكشاجم . . . فكل هذه إشارات لايصح إهمالها ولابد من تحقيقها . . . وإذا كان شعر الشاعر هو سجل حياته فمن الطبيعى أن يكون مصدرنا الأول الذى نهتدى بهديه ونسير على سننه :

يقول كشاجم فى سكين سرقت له :

ياقاتل الله كتاب الدواوين	مايستحلون من سرق السكاكين
لقددهانى لطيف منهم ختل	فى ذات حد كحد السيف مسنون
فابتز نيها ولم أشعر به عبثا	ولست لوساء فى ظن بمغبون (١)

قد يفهم من هذا أن الرجل من بين كتاب الدواوين هؤلاء الذين حصل منهم هذا العبث ، ولكن هذا مجرد احتمال يقلل من قيمته مايحتمل من أن هؤلاء الكتاب ربما كانوا مجرد أصدقاء ، وأن هذا العبث كان فى بيته مثلا أو فى مكان آخر غير الديوان .

ولكنا نراه فى موطن آخر يرثى غلاما له بهذه الأبيات

من لدراة كنت تعنى بها	عناية تعجز عنها العيون
تغدو مع الكتاب غلمانهم	وأغتدى وحدى وثالى قرين
فالدار والديوان من بعده	كرسم دار خف منها القطين (٢)

فهذا كلام يثبت أنه كان كاتبا بالفعل وأنه كان من كتاب الدواوين . واليك نصا آخر ينطق فى وضوح وجلاء بأن الرجل كان من كتاب الديوان فى مصر دانها :

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى	والآن عدت وعادت مصر لى دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبا	طورا وطورا أرجى السير أطوارا
بينا أسامى رئيسا فى رئاسته	إذ رحت أحسب فى الحانات خمارا

(١) النسخة المخطوطة من الديوان ورقة ١٥١

(٢) نفس المرجع ورقة ١٥٥

١ أعيان الشيعة ١ ـ ٢٤٧

فللدواوين إصباحي ومنصرف إلى بيوت دعى يملن أوتارا (٣)

وهذا وقد عثرت فى ديوانه على نص صغير قد يمثل رسائله الاخوانية ، فقد ذكر فى ثنايا الديوان : وقال فى أبى الحسن الاسكافى ، وقد وجد به علة ، وقد أهدى اليه طيور حجل وكتب اليه رقعة نسختها : لم يدع منظوم هذه الرقعة لمنثورها حظا فى المعنى الذى اشتملت عليه ، وسيدى يقف على الأبيات فيتطول بتشريفى بما التمسته فيها ، وجعلتها سببا له ، إذ كان الغرض اسعافه بما لايزال يستدعيه ، ويرتاح له من لطيف المذاكرة والمفاكهة للادب الذى وفر الله من حظه وحبب اليه أهله ، لاأزال الله عنهم ظله ، ولا سلبهم سيادته ورياسته (١)

ولو قد صح أن تكون هذه الفقرة الصغيرة عنوانا لنثر كشاجم لغلمنا أن كتابته سهلة ، مرسلة ، سليمة من التعقيد ، خالية من السجع والبديع إلا ماجاء من ذلك عفوا ، ولكن هذا النص وحده ـ كبر أو صغر ـ لايكفى فى الواقع فى اثبات حكم أو نفيه ولهذا فمن حق البحث علينا أن نرجىء هذا الحكم حتى ندرس فيما بعد مايمكن أن تصل اليه يدنا من آثاره الأدبية النثرية الأخرى مثل كتاب « المصائد والمطارد » وكتاب « خصائص الطرب » وكتاب « أدب النديم » فان بعضها فى متناول اليد وبعضها الآخر لانعرف عنه إلا اسمه أو ماجاءنا من فقر وعبارات متناثرة فى بطون الكتب وأمهات المراجع .

أما عن الشعر فنحن نسلم بالمبدأ ، وهو شاعرية كشاجم ونرجىء الكلام المفصل عن هذه الشاعرية فى ذاتها ومقدار حظها من العمق أو السطحية ؛ ومن التقليد أو الاصالة ، ومن توفر الصدق الفنى أو عدم توفره ... لأن هذا كله جدير بالعناية الخاصة بعد الفراغ من هذه الفصول التمهيدية فى البحث .

أما مايختص بالحديث عن كشاجم المنجم ، فقد عده صاحب « أعيان الشيعة » ـ من المحدثين ـ من منجمى الشيعة ، ونقل ذلك عن كتاب معالم العلماء لابن شهر اشوب ، كما أن التراجم التى سردناها تكاد كلها تجمع على ذلك . ولاندرى مبلغ هذا القول من الصحة ، فقد يكون من قبيل التكثر والتزيد ، لاسيما أن كشاجم لم يترك فى هذا العلم أثرا ولم يؤلف فيه كتابا ولكن مهما يكن من شىء فان الرجل لابد وأن يكون قد ألم بشىء من ثقافة المنجمين ظهر أثره فى شعره :

قال يصف امطار لابا :

ومستدير كجرم الشمس مسطوح عن كل رائنة الأشكال مصفوح
ملء البنان وقد أوفت صفائحه على الأقاليم فى أقطارها الفيح
كأنما السمة الأفلاك محدقة بالنار والماء والأرضين والريح
تنبيك عن طالع الأبراج هيئته بالشمس طورا وطورا بالمصابيح
فان مضت ساعة أو بعض ثانية عرفت ذاك بعلم فيه مشروع
وإن تعرض فى وقت تقدره لك التشكك جلاه بتصحيح
مميز فى قياسات النجوم به بين المشائم منها والمناجيح
وفى الدوائر من أشكاله حكم تنقيح العقل منها أى تنقيح
لايستقل لما فيه بمعرفة الحصيف اللطيف الحس والروح
حتى يرى الغيب فيه وهو منغلق الأبواب عمن سواه جد مفتوح
نتيجة الذهن والتفكير صوره ذوو العقول الصحيحات الراجيح

وقال يصف تخت الحساب والرمل :

وقلم مداده تراب فى صحف سطورها حساب
يكثر فيه المحو والاضراب من غير أن يسود الكتاب
حتى يبين الخبر والصواب وليس إعجام ولا إضراب
فيه ولا شك ولا ارتياب

وأما مانقل من أنه كان من المتكلمين ، ومن علماء الجدل والمنطق ؛ فهذا ملتمسه رغبة الوقوع على مايؤيده صراحة أو استنتاجا فلم أعثر عليه ، وقد تتبعت صلات الرجل فلم أجد نصا واحدا يؤيد أنه درس الجدل أو المنطق أو علم الكلام ، أو جلس من أحد الأعلام المشهورين فى هذه العلوم مجلس التلميذ من أستاذه ثم إنه لو كان له من ذلك حظ لانعكس فى شعره شأنه فى ذلك شأن النواحى الأخرى التى أخذ منها بطرف . فشعر الرجل لايعطينا ولو خيطا دقيقا يتعلق به القائلون بأن كشاجم كان له حظ من هذا النوع من الثقافة .

ولا يتغير الموقف كثيرا إزاء ماذكره بعض أصحاب التراجم

٣ ورقة ٦٤

١ الديوان ورقة ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٠ ، ٣٥

١ الديوان ورقة ٣١ ٢ نفس المراجع ورقة ١٦

من أن كشاجم طلب علم الطب حتى مهر فيه وصار أكبر علمه إذ لو كان ذلك كذلك لكان قد ترك لنا فى هذا العلم شيئا مما تركه العلماء فيما مهروا فيه من علم ، أو على الأقل قد كان يستطيع أن يخلد اسمه بين الأطباء الذين حمل الينا التاريخ أسماءهم وإن لم تصلنا آثارهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث؟ فهذا كتاب إخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطى يحدثنا عن بعض الأطباء المعاصرين لكشاجم مثل أبى الحسن بن كشكرايا (١) بينما لم يرد فيه ذكر لكشاجم. وهذا طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة يحدثنا عن كثير من الأطباء المعاصرين للرجل مثل أبى الحسن ابن كشكرايا هذا الذى قال عنه إنه كان طبيبا عالما مشهورا بالفضل والاتقان لصناعة الطب وجودة المزاولة لأعمالها وكان فى خدمة سيف الدولة بن حمدان (٢) ومثل البالس الذى « كان طبيبا فاضلا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة وأفعالها ، وله من الكتب كتاب التكميل فى الأدوية المفردة ألفه لكافور الإخشيدى » (٣) ومثل أبى جعفر أحمد بن ابراهيم المعروف بابن الجزار (٤) . . . هذا ولم يرد ذكر لكشاجم بين هؤلاء جميعا . وكل ماهنالك أنه قد وردت إشارة اليه لا على أنه طبيب ، بل شاعر يثنى على هذا الطبيب أبى جعفر ويصف كتابه المعروف بزاد المسافر :

أبا جعفر أبقيت حيا وميتا ... مفاخر فى ظهر الزمان عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا ... من الناظرين العارفين زحاما
سأحمد أفعالا لأحمد لم تزل ... مواقعها عند الكرام كراما (١)

فكل مافى الأمر أن كشاجم ربما قد قرأ هذا الكتاب فألم بشىء منه. ثم إنه من المحتمل أن يكون قد عرف شيئا من هذا عن طريق تعارفه ببعض الأطباء الآخرين ممن مدحهم فى شعره ولكن ليس فى هذا مايدل على أنه مهر فى علم الطب حتى صار أكبر علمه !!

ثم اذا كان كشاجم قد حاول أن يعرف شيئا من الثقافات المختلفة فى عصره فهو ليس بدعا فى هذا وإنما شأنه شأن غيره من الكتاب الذين عاصروه أو تقدموا عصره بقليل فقد كانت الحياة تموج من من حولهم بألوان الثقافات الدينية والعقلية فى العصر العباسى الثانى مما ظهر أثره فى شعر الشعراء ونثر الكتاب فى حاضرة الخلافة أولا ، ثم فى الولايات الإسلامية المختلفة ، وقد كان ابن عبد كان كاتب أحمد بن طولون ، وأول كاتب ديوانى فى مصر من هذا الطراز من الكتاب . فنحن لا نغمط كشاجم حقه ، وإنما نود أن نقول انه واحد من هؤلاء الكتاب ، الذين كانت تفرض عليهم مهنتهم أن يتصلوا اتصالا مايختلف الثقافات

وهكذا نرى أن فى المسألة شيئا من المبالغة التى نجدها كثيرا عند القدامى من النقاد وأصحاب التراجم ، وهذا الطابع طابع المبالغة قد تأثر به كشاجم نفسه فهو الآخر يقول فى صديق له من الاطباء

الحمد لله قد وجدت أخا ... لست مدى الدهر مثله واجد
أسكن فى صحتى اليه فان ... مرضت كان الطبيب والعائد
طبا يعيا منجما جدلا ... يجمع منه الكثير فى واحد
ينظر فى الجزء والخطوط ولا ... ينتقد النطق مثله ناقد

وقد يقف هذا الموقف حتى من نفسه ولا ندرى أهو سذاجة أم غرور أم هو شىء بين بين أم انها المبالغة الأدبية لا أكثر

وما زلت أبغى العلم من حيث يبتغى ... وافتن فى أصنافه وتطرفه
فقد صرت لا ألقى الذى أستزيده ... ولا يذكر الشىء الذى لست أعرفه

وليت شعرى هل وقف الرجل على هذه الحكمة المأثورة لايزال الرجل عالما ماطلب العلم. فان ظن أنه قد علم فقد جهل؟

ولكن لعل فى هذا مايدل على أن الرجل كان يحاول كما قلت أن يأخذ من كل شىء بطرف وإن لم يصل فى الواقع فى شىء إلى القمة أو مايقرب منها .

عبد الجواد الطيب

١ إخبار العلماء ص ٢٦٣ ٢ طبقات الأطباء ١ ـ ٢٣٨ ٣ نفس المراجع ٢ ـ ٨٦ ٤ نفس المراجع ٢ ٣٧ طبقات الأطباء ٢ ـ ٣٨

اعلان

تعلن منطقة القاهرة الجنوبية التعليمية عن حاجتها إلى منازل لشغلها معاهد للتعليم بالأقسام الآتية :

السيدة زينب — الخليفة — الدرب الأحمر — عابدين — بولاق

فمن له رغبة فى تأجير منزله فليتقدم بطلب مصحوب بالرسم إلى حضرة صاحب العزة المراقب العام للمنطقة بعنوان (مكتب بريد البرلمان)

٥٧٦٢